رؤية نفسية اجتماعية لمسرحية «أسفار الزُباري»

مشاهد من العرض المسرحي

لعله من حسن الطالع أن نأتي إلى الدوحة في موسم عيدها كعاصمة للثقافة العربية لعام 2010. فبعد غربة سنوات طويلة في جزيرة أيرلندا بعيداً عن العالم العربي، والتي يسميها ابن خلدون في مقدمته "جزيرة رسلاندة"، وبعد أقل من ثلاثة أشهر من انتقالي للعمل في قطر، فقد تسنى لي أن أحضر خلال أيام قليلة مسرحيتين على خشبة مسرح قطر الوطني، كانت الأولى "مجاريح" للكاتب إبراهيم عبدالله والمخرج ناصر عبدالرضا، وكانت الثانية في الثالث من الشهر الجاري "أسفار الزُباري" من تأليف وإخراج السيد عبدالرحمن المناعي، الذي يسميه البعض شيخ المخرجين القطريين، وهو جدير بها من خلال ما رأيت في هذا العمل حيث لم أطلع على أعماله الأخرى. وقام بالأداء الرائع للمسرحية فنانو فرقة الدوحة المسرحية. وقد سررت بالمسرحيتين، وإن كان حديثي في هذه المقالة عن الأخيرة منهما "أسفار الزُباري". وأنا أطرح هنا أفكاراً جالت في خاطري وأنا أعيش مشاهد هذه المسرحية.

المسرحية:

تدور أحداث المسرحية حول أسرة "الزباري الكبير" (الفنان خالد الحمادي) وهو صياد البحر الذي كهلت سفنه، وبليت أشرعتها، ومع ذلك يجد نفسه أمام مسؤولية تربية ابنته الوحيدة "هيلة" (الفنانة فاطمة الشروقي)، حيث كانت زوجته صاحبة "الشوكة"، والتي لا نراها على خشبة المسرح، قد أصرّت على الطلاق، ولا ندري لماذا. يجد "الزُباري الكبير" نفسه أمام هذه المسؤولية التي لم يردها، إلا أن الظروف فرضت نفسها عليه. فيحاول القيام بواجبه، ولعله نجح لحدّ ما في بهذا الواجب، حيث نرى في المسرحية العلاقة الوالدية الحميميّة التي تربطه بابنته "هيلة". ولكن في الوقت ذاته تتصارعه عدة جواذب يسميها هو "مفاصل الحياة القاسية". ومن هذه الجواذب رغبته في الإبحار مجدّداً، ولكن هذه المرة ليس في رحلة صيد قصيرة عابرة، وإنما رحلة تجارة خلف البحار، حيث ابتاع خيولاً يريد بيعها في بلاد بعيدة بلا خيول ولا تمر ولا ماء، ويشتري خشباً، ليبني من جديد سفنا جديدة. يحاول الزُباري صراع هذه الأفكار، فنراه مطمئناً لدوره الاجتماعي، أو هكذا بدا لنا، بالرغم من التحديات والصعوبات. إلا أنه كيف يتحمّل كل هذا الصراع وهو يسمع ذلك الغناء من صياد البحر المسنّ الذي فقد بصره فأصبح لا يجيد إلا الغناء المغموس بالحزن والرجاء، والذي يعاني من الغربة، يغني بذلك الصوت الباكي والآتي من وراء البحار، حيث تناقل الناس أن من يعني هذا الغناء يصاب بالعمى (عرفت لاحقاً أنه صوت الفنان الشعبي القطري الراحل سالم العلان، الذي تمنيت رؤيته، وسماع المزيد من أغانيه) فإذا بالزُباري فجأة يعزم الأمر على الإبحار، وتسأله هيلة متوسلة "وأنا؟ وأنا؟". يودع ابنته ويخرج مسرعاً من بيتهم الكبير الذي بناه طوال حياته، ويخرج كذلك من مشهد المسرحية، فلا نعود نراه.

ويطول انتظار الابنة هيلة لأكثر من خمس سنوات، وتتعدّد روايات الناس في مصير والدها الزُباري الكبير، وأين يمكن أن يكون، وماذا ربما جرى معه أو مع خيوله. ونحن نسمع بين الحين والآخر غناء ذلك الصياد المسن الأعمى يأتينا من بعيد.

وبعد طول انتظار هيلة عند أمها، وبضغط من خالها (الفنان أحمد عفيفي) تتزوّج من ابن عمها اليتيم، والذي يصبح الآن الزُباري الزوج محمد (الفنان خالد الحمادي مجدّداً)، إلا أنه هنا ليس كالزُباري الكبير المسن باللحية البيضاء، أبوهيلة، وإنما ذلك الشاب الفتي باللحية السوداء، والذي لم تتعبه السفن بعد، ولم تبل أشرعتها، وتحديه أو مفصل الحياة القاسي هنا ليس السفن البالية وإنما كساد سوق اللؤلؤ وقلّة المشتري.

وها هو الزباري الزوج وبعد سنة من زواجه من هيلة يفعل ما فعله الزباري الكبير من قبله، فيرنو نحو البحر، البحر الذي هو حاجز وسدّ وفي الوقت نفسه بوابة مفتوحة للخارج والعالم الآخر، البحر الذي لا تدري أهو باب مغلق أمامك يمنعك من التقدم خطوة كالسدّ، أم بوابة مفتوحة تدعوك للولوج. يبدأ زوجها الذي لم ينادها باسمها "هيلة" إلا مرة واحدة حيث اعتاد أن يناديها بابنة الزباري، يبدأ بالحديث معها عن ذلك القارب الكبير كبر عشر مراكب من مراكب والدها، القارب الذي يسير بلا شراع، والذي فيه شياطين تحركه من تحته. تحاول هيلة أن تثني زوجها الزباري عن الرحيل، فيكفيها جرح قلبها مرة بفقد أبيها، إلا أن الزباري الزوج يصرّ على الإبحار، فكيف يقاوم وهو يسمع من جديد غناء الصياد المسن الأعمى بصوته الباكي، الذي قد يمقته الإنسان وقت الظهيرة ولكنه يرتاح إليه عند المساء. فيحمل الزُباري اللؤلؤ ويبحر من جديد، وبسرعة يختفي من المشهد كما اختفى من قبله الزُباري الأبّ، ولا يعود للمشهد كما لم يعد الزُباري الكبير من قبل.

وتجد هيلة نفسها مجدّداً، وهي الأم هنا للزُباري الصغير كما كانت من قبل ابنة الزُباري الكبيرومن ثم زوجة الزُباري محمد، تجد نفسها وحيدة من دون الرجل الذي تعيش معه لمواجهة مفاصل الحياة القاسية. تجد نفسها وقد عانت فقد أبيها، ومن ثم زوجها، ومن قبل أمها بالطلاق من أبيها. أحزان متراكبة، ومفاصل الحياة القاسية. تجد نفسها بلا شيء إلا بيتهم الكبير الذي أصبحت تعرف حجارته أكثر مما تعرف وجوه الزباريين. وتشعر بأن خطواتها كانت مقيّدة طوال حياتها، فمن قبل كانت مقيدة بخطوات شوكة أمها وأبيها، والآن بخطوات الزباريين. إلا أن غريزة الأمومة والمرأة التي فيها تجعلها تصمد أمام كل هذه "المفاصل الحياتية"، وتجعلها تتوجه لتربية الزُباري الصغير، فتهزّ له المهاد الذي كانت قد نامت فيه وهي صغيرة، فتربي طفلها على نقاء الماء وطهر التراب.

هذا الغلام الصغير (محمد مصطفى) والذي نراه على خشبة المسرح ولوقت طويل ينظر بعيداً عنا، ينظر إلى الأفق البعيد، ينظر إلى البحر البعيد، وهو يحمل بيديه الغضتين قطعة قماش بيضاء أكثر ما تشبه شكل شراع السفن، فيتخوّف جمهور المسرحية ربما كما تخوفت أنا من أنه ما هو إلا ووقت قصير حتى يلتحق الزُباري الصغير بأبيه ومن قبله جده الزُباري الكبير. ويزداد تخوّفنا أكثر فأكثر ونحن نسمع غناء ذلك الصياد المسنّ الأعمى، الذي ربما حرّك من قبل عواطف الزُباري الأب ومن بعده الزباري الزوج.

ماذا تفعل هيلة الأم وهي الآن وحيدة مع صغيرها الزُباري في بيت واسع كبير. نجدها تقتطع من بيتها ثلاث غرف فتُسكن فيها امرأة أرملة وأطفالها، وإمام المسجد، والمغني الأسود، إنها تريد أن تسمع أصوات بشر في بيت الزُباريين الكبير. تفعل هذا بالرغم من اعتراض خالها، الذي رأيناه من قبل، والذي بالرغم من تقدمه بالسنّ إلا أنه ما زال يطمع في التسلط على بيت ابنة أخته التي كانت زوجة للزباري الكبير.

ويأتي الخال هنا بالشيخ القاضي، وقد كان قد أتى بأبيه القاضي من قبل (الفنان جاسم السعدي). وبالرغم من أن الخال لم يحصل في الماضي على الفتوى التي تمناها من القاضي الأب، فإنه هنا يطمع بأن الأمور قد تغيّرت لصالحة، وبأن القاضي سيحكم له بامتلاك البيت، فإذا به يسمع الجواب الشرعي نفسه الذي سمعه من قبل، والذي يعتبر هيلة مالكة للبيت.

ويشتد عود الزباري الصغير، ويصبح شابا صيادا (الفنان خالد الحمادي)، ولكنه يبدو وكأنه مندمج في عجلة الحياة، ومصارعة مفاصلها القاسية، بروح الشاب الذي لا يريد أن يكرّر رحيل والده وجده.

ويأتي الخال مجدّداً بالقاضي طمعاً في فتوى لصالحه مختلفة عن فتاوى مَن قبله، إلا أنه يسمع مجدّداً الفتوى نفسه، فيتهم الخال العلماء والقضاة بأنهم "يتكلمون بلسام واحد".

وهنا، وبعد أن قامت هيلة بتربية ابنها الزُباري الصغير، وبعد أن تطمئن على أن ولدها الزُباري قد نشأ وترعرع، وضربت جذوره في الأرض، مؤكداً أنه لن يرحل ولن يغترب ولن يركب البحر بعيداً كسابقيه، بالرغم من سماعه لذلك الصوت الحزين، صوت الصياد المسنّ، وبعد أن تطمئن هيلة لأخلاق الشيخ القاضي وصدقه وأمانته، فإنها تأخذ خطوة جريئة مفاجأة فتعرض نفسها للزواج من ذلك القاضي الأعزب.

ثم نرى من هيلة وزوجها الصالح خطوة أخرى مفاجأة حيث يرحلا معا إلى الديار المقدسة، ليبدأ حياة جديدة هناك، ولعل قداسة تلك الديار تشفي شيئا من جراح هيلة عبر السنوات. وهكذا تخرج هيلة الأم من مسرح الأحداث، ولكننا نسمع عن أخبار نجاحها وزوجها العالم في تلك الديار.

ولا يبقى في مشهد الأحداث إلا الزُباري الابن الذي لدغته الآن سمكة سامة، فهو يصارع الموت والحياة، فيهرع لنجدته إمام المسجد والمرأة الأرملة والمغني الأسود الذين يسكنون جزءاً من البيت الكبير، ويبقى كذلك خال هيلة الذي مازال رغم تقدّم سنه يطمع بالسيطرة على بيت ابنت أخته.

الإخراج:

ملاحظات كثيرة تشير لإبداع وخبرة المخرج القدير، وأشير هنا لبعض منها.

تمرّ كل هذه الأحداث التي تمتدّ على مدار ثلاثة أجيال في حدود الساعة التي لم نشعر بها، بل على العكس يلاحظ المراقب تردد المشاهدين في ترك مقاعدهم، وكأن لسان حالهم يقول نريد المزيد.

من الأمور الجديدة عليّ في هذه المسرحية والتي استغربتها في البداية إلى أنني ارتحت لها جدّا فلم تتعبني لاحقاً، هو جلوس الممثلين جميعاً على خشبة المسرح، وحتى الذين ليسوا في بقعة الضوء، وهم إما يغيّرون في الماكياج واللباس، أو ينتظرون أدوارهم. ولعل هذا يعكس شفافية ووضوح شخصية السيد عبدالرحمن المناعي. وبالرغم من أن المشاهد يرى بطرف عينه الممثلين على خشبة المسرح إلا أنهم لا يدخلون شعوره ولا تفكيره كثيرا، إلا عندما يدخلون بقعة الضوء للقيام بأدوارهم. كم وددت أن أجلس معهم في ظلّ خشبة المسرح لأراقب تفاعل الجمهور مع المسرحية وتقلبات أحداثها.

وربما كان في لا شعور كل الحضور، ممثلين على خشبة المسرح ومشاهدين على مقاعد النظارة، فكرة يا ترى من يشاهد من، هل نحن الجمهور نتابع أحداث مسرحية في الماضي، وفي أيام الزباريين، أم أن من يجلس على خشبة المسرح هو الذي يشاهدنا نحن الذين نعيش في هذا الزمان، فمن يشاهد من؟! وربما هذه اللفتة الإخراجية الفنيّة قد جعلت المسرحية قريبة جدا من حياتنا وواقعنا بالرغم من أن أحداثها تاريخية تراثية. ارتفعت الحواجز، واختفى عنصر الزمن، واختصرت المسافات، إلا المساحة الهائلة المرعبة لذلك البحر الكبير الذي يتنفس وباستمرار من خلال أمواجه التي لا تهدأ.

أن تقوم المسرحية بشكل أساسي على أربعة ممثلين، وأن يلعب الممثل ثلاثة أدوار لشخصيات مختلفة، وفي زمن قصير، كما فعل الفنان خالد الحمادي في دور الزباري الكبير والزباري الزوج والزباري الابن، وكذلك الفنان جاسم حمدي في دور الشيوخ والقضاة، أو من قام بأدوار نفس الشخص ولكن في مراحل عمرية مختلفة متباعدة، كما فعلت الفنانة فاطة الشروقي في أدوار هيلة الابنة، وهيلة الزوجة وهيلة الأم، والزوجة مجددا، وكما فعل الفنان أحمد عفيف في أدوار الخال الشرير في مراحل عمرية مختلفة، وكل أتقن لعب الدور الذي يمثله، إن كل هذا ليشير إلى روعة النص الروائي، وإبداع الإخراج، لدرجة جعلت الممثلين يرتاحون لتمثيل هذه الأدوار، وقد ظهر عليهم جميعا ما يشير لارتياحهم وتفاعلهم المقنِع مع هذه الأدوار.

كان ديكور المسرح غاية في البساطة، إلا أنه محمّل بالرمزية، فكان من النوع السهل الممتنع. سلسة حديد بقيدين دائريين كبيرين، واحد معلق في الهواء، وربما يشير لمصير الإنسان، وقدره المكتوب، واللامحدود واللامتناهي، والبعد النفسي والفلسفي، والقيد الآخر على أرض خشبة المسرح، وبحيث تدور معظم أحداث المشاهد وأشخاصها واقفون وسط هذا القيد، والذي ربما يشير لضغط الواقع، و"مفاصل الحياة القاسية"، وما يمكن أن يقيّد حركة الناس وحرياتهم، أو هكذا يظنون.

وربما أراد السيد عبد الرحمن المناعي، أن يوحي إلينا بثقل الواقع الذي يمكن أن "يقيدنا" ويقيّد حياتنا، وكأنه قيد في أيدينا، إلا أن البحر من حولنا يعطينا مؤشرات مختلفة، ويفتح لنا الأفق البعيد، وبأن الانفكاك من القيد والأسر أمر وارد، إن نحن حررنا أنفسنا من القيد الذي وُضع من حولنا، أو ربما نحن من وضع أنفسنا في أسره.

لقد عوضت كلمات النصّ والحوار وحسن أداء الممثلين عن قلة عناصر الديكور على خشبة المسرح، فمن خلال الكلمات كدنا أن نرى على خشبة المسرح السفن التي شاخت والأشرعة التي بليت، وأن نرى الخيول العربية الممتلئة عنفوانا التي اشتراها الزباري ليبيعها في البلاد البعيدة بلا تمر وبلا ماء وبلا خيول.

عالم الأفكار:

تطرح مسرحية أسفار الزباري تساؤلات فلسفية وأخلاقية واجتماعية ونفسية كثيرة، بعض التساؤولات هي في صلب المسرحية وأمام أعين النظارة ليروها، وبعضها ربما لم يرد المؤلف أن تكون في الواجهة وإنما حاول لمسها لمسا خفيفا.

فالمسرحية تطرح الموضوع القديم الجديد، موضوع المرأة والعلاقات الأسرية والاجتماعية، وهل عند المرأة "شوكة" أو لا؟ وكيف يمكن للمرأة أن تأخذ المبادرة، حيث أن المباردة تؤخذ ولا تعطى.

د. مأمون مبيض
استشاري الطب النفسي
مدير البحوث والدراسات
مركز التأهيل الاجتماعي
"العوين"، الدوحة
محاضر سابق في جامعة الكوينز في بلفاست
mobayed@hotmail.com

أراد المناعي أن يوحي إلينا بثقل الواقع الذي يقيدنا